خذا حذراً يا جارتى فاننى رأيت جرانَ العودقد كاديصلح

نخوفهما بسير قُدّ من صدر جمل مسن

ومن ذلك أن المرقش الأكبر لقب بهذا لقوله :

الدار قفر والرسومُ كما رقّش فى ظهر الأديم قلم

واسم المرقش ربيعة بن سعد بن ملك

ومن ذلك أن مدرج الريح لقب بهذا لقوله :

ولها بأعلى الجزع رسمٌ دارس درجت عليه الريح بعدك فاستوى

فاذا نظرنا إلى هذه الأخبار المتناقضة فى ذاتها لم تشف غليلنا فى هذه النبوة المزعومة ؛ وليس أمامنا فيها إلا اللجوء إلى ما سموه علم الجرح والتعديل ، وإنى لا أثق كثيراً بهذا العلم ، لأنه يختلف أيضاً فى أمر رواة الأخبار ، ولأنه يعتمد على ظاهر أمرهم وهو لا يدل حقيقة عليهم

فلا بد من اللجوء إلى أمر آخر يشفى غليلنا فى أمر هذه النبوة ، وذلك الأمر هو الشعر الذى قيل فى العهد الذى يقال إن المتنبى ادعى فيه هذه الدعوى ، وسنبدأ بهذا فى المقال الآتى

(يتبع) عبد المتعال الصعيدى

تاريخ العـــرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

المستشرق الانجليزى

المدخل لتاريخ العرب

- ٢ -

وإذا وجدنا أن اللغة لا تجرى فحسب على ألسنة الشعراء الجوّالين (الذين كانوا عادة على جانب من الثقافة) أو عرب الحيرة المسيحيين ، بل تداولها ألسن الرعاة واللصوص والبدو الغلاظ فى كل البقاع ، إذا وجدنا هذا فليس ثمت داع للشك فى أننا نسمع من خلال شعر القرن السادس اللغة العربية التى كانت مستعملة فى طول بلاد العرب وعرضها . وقد زاد انتصار محمد والفتوح الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين من شأن هذه اللغة وأصبحت العربية لساناً مقدساً فى جميع الأمصار الاسلامية . ولا مراء أن الفضل فى هذا يرجع إلى القرآن ، ولكن من ناحية أخرى أمر اعتبار لهجة مكة (التى نزل بها القرآن) الأصل للعربية ، وتسمية العربية « لغة قريش » كافٍ لدحض كل حقيقة حول هذا الموضوع . وقد اتخذ محمد (ص) — كما لاحظ نلدكه — الشعر القديم مثالاً . وفى صدر الاسلام كانت سلطة الشعراء الجاهليين (وقليل منهم كان من قريش) هى التى ثبتت قدم اللغة الفصحى وعممت استعمال الأسلوب الفصيح . وطبيعى أن يكون المسلمون — وهم الذين عدوا القرآن كلمة الله والمعجزة البالغة فى أسلوبها — قد قدموا لهجة قبيلة النبى على كل لهجة أخرى ؛ كما أنكروا القول بأن كل قبيلة أبعد من مكة أقلّ فصاحة ، ولكن هذه النظرة لا تلاقى قبولاً لدى الباحث المحايد . ولو أنه كان للقرآن تأثير عظيم فى تاريخ اللغة العربية وآدابها ، وسنرى فى فصل خاص أن ضرورة حفظ أصل الكتاب الكريم سليماً ، وشرح غوامضه بعثت المسلمين على استنباط علم النحو واللغة ، ودعَتْ إلى جمع شعر الجاهلية والأخبار التى لا بد قد تطرّق إليها الضياع . ولما استقر العرب — كفاتحين — فى سورية وفارس واختلطوا بالشعوب الغريبة عنهم ، لم تلبث لغتهم محافظة على فصاحتها الأولى ، أما فى بلاد العرب نفسها وخاصة بين بدو الصحراء فلم يكن الفارق محسوساً ، وكذلك فى البلدان المجاورة ومراكز التجارة الكبرى كالبصرة والكوفة حيث كان معظم السكان من الأجانب الذين اعتنقوا الاسلام وسرعان ما استعربوا ؛ وظل الباب مفتوحاً على مصراعيه لجميع ضروب الفساد . وقد أعلن علماء اللغة حرباً ضروساً على هذه العربيــة التى شابتها العجمة ، وإن الفضل فى انتصار العربية الفصحى وتغلبها على الأخطار الجسام التى هددتها ليرجع إلى ما بذله هؤلاء من جهود ؛ وبالرغم من أن لغة البدو الوثنيين لم تبق كما هى — أو ظلت على أى حال حية على ألسنة المتحذلقين والشعراء فحسب — إلا أنها أصبحت بعد تحوير قليل الوسيط العالى للحديث بين الطبقات العليا فى المجتمع الاسلامى ، وفى مستهل العصور الوسطى كانت لغة الحديث والكتابة لجميع مثقفى المسلمين من أى جنسية كانوا : من بلاد الهند حتى المحيط الأطلسى ، فكانت لغة البلاط والدين ، ولغة الشرع والتجارة ، ولغة السياسة والأدب والعلم ، وفى القرن العاشر حينما ثل الغزو المغولى عرش الخلافة العباسية وانفرط عقد الوحدة الاسلامية السياسية لم تعد العربية Kolve أو اللغة العامة للعالم المحمدى ، بل حلت مكانها لهجة سوقية فى

بلاد العرب وسورية ومصر وبعض الأقطار الناطقة بالضاد ، ولو أنها ظلت فى هذه الأمصار لغة الأعمال والأدب والتعليم . ونسمع اليوم من مصدر ثقة « أنها آخذة فى النهوض ، وأنها على وشك أن تسترد ثانية مكانتها الأدبية العظمى [1] » وهى إذا كانت تشغل — بالنسبة إلى هؤلاء المسلمين من غير العرب — نفس المكانة التى تشغلها اللاتينية والاغريقية فى الثقافة الأوربية الحديثة ، فينبغى ألا يغرب عن ذهننا أن القرآن (وهو أروع آثارها) يحفظه كل مسلم لأول ذهابه إلى المدرسة ، وهو يتلوه فى صلواته اليومية ، ويسيطر على مجرى حياته كلها إلى درجة يكاد لا يصدقها المسيحى العادى

وآمل أن يغفر لى القارئ تجاهلى — فى كتاب كهذا — ما يتعلق بالتاريخ العربى القديم الذى يمكن الالمام به من الآثار الأشورية والبابلية ، كما أن أى كتابة يحاول من ورائها دراسة العرب من سنة ٢٥٠٠ ق . م حتى بداية العصر المسيحى لأشبه بخريطة Cathay رسمتها يد سير جون ماندفيل ؛ بيد أن شعباً (غير سبأ أو حمير) من بين شعوب الجزيرة استطاع أن يترك أثراً أبقى من غيره ، ذلك هو شعب النبط الذين سكنوا المدن واحترفوا التجارة قبل ميلاد المسيح بزمن طويل ، وأسسوا مملكة «بتراء» التى كانت رخية متقدمة فى الزراعة حتى كان عام ١٠٥ م حين ضربها ودمرها تراجان ، وكان هؤلاء الأنباط يتكلمون العربية بالرغم من أنه قد ورد خطأ فى أحد نقوشهم أنهم كانوا يستعملون الآرامية فى الكتابة [2] ؛ ويخلط المؤلفون المسلمون بينهم وبين الآراميين إلا أن الدراسة العميقة لنقوشهم أثبتت خطأ هذه الفكرة التى أقرها كاترمير [3] ، وإن كتاب « الفلاحة النبطية [4] » الذى ألفه عام ٩٠٤ م الكاتب المسلم ابن وحشية الذى اعترف بأنه ترجمه من الكلدانية ، فقد ظهر الآن أنه مختلق ، وما أشرت اليه فى هذا المجال إلا كمثال للوسيلة التى يستعمل فيها المسلمون لفظ « نبطى » ، لأن العنوان المشار اليه حالاً لا يرجع بالطبع إلى بترا ولكن إلى بابل

من كل ما قيل يستطيع القارئ أن يلاحظ أن تاريخ العرب — وجل معلوماتنا عنه مقتبسة من مصادر عربية — يمكن تقسيمه إلى ثلاثة عصور

(١) العصر السبأى والحميرى من ٨٠٠ ق . م وهو تاريخ أقدم نقوش العربية الجنوبية حتى سنة ٥٠٠ م

(٢) العصر السابق للاسلام (أى من ٥٠٠ م — ٦٢٢ م)

(٣) العصر الاسلامى ويبدأ من هجرة الرسول من مكة إلى المدينة أى من سنة ٦٢٢ حتى الوقت الحاضر

أما عن العصر الأول الذى يتعلق بتاريخ اليمن أو بلاد العرب الجنوبية فليس لدينا مراجع عربية معاصرة له سوى النقوش ؛ كما أن المورد القيم الذى تمدنا به هذه النقوش على نقصه هو الأحاديث الواردة فى قصائد الجاهلية والقرآن وخاصة فى الأدب المحمدى المتأخر ؛ ولا مراء فى أن معظم هذه الأخبار أساطير ، ومن الأجدر أن يتجاهلها الباحث المشتغل بالبحث التاريخى ، ولكنى سأخصص جزءاً وافياً لدراستها ، خاصة وأن غرضى الأول هو التعريف بمعتقدات العرب أنفسهم وآرائهم

أما العصر الثانى فيسميه المسلمون عصر الجاهلية أو عهد البربرية [1] وتنطبع مميزات هذه الفترة فى دقة وأمانة فيما وصلنا من أغانى وقصائد الشعراء الوثنيين ، إذ لم يكن هناك إبان هذا الوقت أدب تترى فكان من مهمة الشاعر التغنى بتاريخ قومه والافتخار بنسبهم ، وتمجيد استعدادهم للسلاح ، وتبجيل فضائلهم ، ورغماً من أن مقداراً عظيماً من شعر الجاهلية قد فقد إلى الأبد ، إلا أنه

(١) من مقال للأستاذ مرجليوث فى J. R. A. S لسنة ١٩٠٥ ص ٤١٨

(٢) Nöldeke: Die Semitischen-Sprachen, p. 36 399 and. 51

(٣) راجع ما كتبه « Quatremère » فى « الجريدة الاسيوية » شهر مارس سنة ١٨٣٥ ص ٢٠٩ وما يليها

(٤) يقول الأستاذ إسرائيل ولفنسون بصدد هذا الكتاب « ألفه سنة ٢٩٦ هـ باللغة العربية أبو بكر أحمد بن على بن وحشية الذى كان من أسرة نبطية وثنية اعتنقت الاسلام وحسن إسلامها ونبغ بعض أفرادها . والكتاب خلاصة لنظريات المعتقدات الوثنية عند النبط والآراميين وما فيه مستمد من آراء عالم وثنى عرف عند ابن وحشية باسم كوثامى ؛ ومع أن كتاب الفلاحة النبطية يشتمل على معلومات ونظريات فى علم الفلاحة والنبات = فانه يحتوى على روايات وقصص عن حياة الأمم الوثنية البائدة فى الشام والعراق والديار الفارسية ... وكان العالم كاترمير يعتقد أن كوثامى المذكور فى كتاب الفلاحة النبطية من رجال القرن السادس ق . م . وقد عارضه نولسون Chwolson فى ذلك إذ بدا له أن كوثامى عاش فى القرن الرابع عشر ق . م أما المؤرخ أرنست رينان فيميل إلى أن معلومات ابن وحشية عن حضارة الأصنام الآرامية ترجع إلى القرون الأولى بعد الميلاد لذلك يؤثر أن يكون كوثامى ممن عاشوا فى ذلك الزمن أيضاً » (راجع موسى بن ميمون ص١١٢ هامش رقم ١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سبتمبر ١٩٣٦)

(١) فى الحقيقة أن الجاهلية تشمل كل الفترة منذ آدم إلى عهد ، ولكنها قد تستعمل — فى دائرة محدودة كما هو الحال هنا — للاشارة إلى عصر ما قبل الاسلام للأدب العربى

لا تزال لدينا بقية كبيرة (بإضافتها إلى ما وضعه علماء اللغة والآثار المسلمون من قصص تترى) تساعدنا على تصور حياة هذه الأيام الغابرة تصورا دقيقاً

أما أهم العصور الثلاثة وآخرها فهو تاريخ العرب تحت ظل الاسلام، وينقسم طبيعيا الأقسام التالية التي ألمت بها في هذا المكان حتى إذا ألقى القارىء عليها نظرة تبين من خلالها مجمل المظاهر السياسية المتعددة لهذا العهد المضطرب الدقيق الذى يقوم تجاهه؛ وهذه الأقسام هي:

ا — حياة محمد

حوالى مستهل القرن السابع المسيحى ظهر في مكة رجل من قريش هو محمد بن عبد الله بكتاب سماوى هو القرآن، دعا قومه لنبذ الأوثان ولعبادة «الله الواحد»، وقد ظل مثابراً عدة أعوام على الدعوة لدين الاسلام في مكة على رغم ما لاقاه من سخرية القوم منه واضطهادهم إياه، ولما وجد أن تقدم دعوته ضئيل هاجر عام ٦٢٢ م إلى بلدة مجاورة تلك هى المدينة، ومنذ ذلك التاريخ كان النصر المؤزر حليفه، وفى خلال السنوات العشر التالية دانت بلاد العرب جميعها لديانته، ودعت بلسانها للايمان الجديد

ب — خلفاء الراشدين (٦٣٢ — ٦٦١)

بعد أن قبض الرسول (ص) تعاور حكم المسلمين بالتتابع أربعة من أعظم صحابته، هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، وسمى كل منهم خليفة، ويعرفون عادة بالخلفاء الراشدين، وفى ظلهم وبإرشادهم ثبتت دعائم الاسلام فى شبه الجزيرة وخفق لواؤه بعيدا وراء الحدود، أما أعداؤه من البدو فقد استقروا كمستعمرين حربيين فى السهول الخصبة من سورية وفارس، وسرعان ما وقعت الأمبراطورية الحديثة النشأة فى حرب أهلية، وكان مقتل عثمان إيذاناً باشتعال النضال بين طلاب الخلافة المتنافسين، وتمسك على — صهر الرسول — بلقبه، ولكن حاكم سورية القوى معاوية بن أبى سفيان أنكر خلافته ونافسه

حـ — الدولة الأموية (٦٦١ — ٧٥٠)

لما سقط على صريعاً بضربة خنجر إعتلى معاوية عرش الخلافة التى ظل وقفاً على أسرته تسعين عاماً، وكان الفارق الوحيد فى الأمويين أنهم كانوا عرباً قبل أن يكونوا مسلمين، وكان أثر الدين فيهم ضئيلا، ولكن ظهر منهم بعض حكام أكفاء مهرة، جديرين بأن يكونوا قادة جنس آمر. وقد بلغت الفتوح الاسلامية أقصى اتساعها عام ٧٣٢ م، وكان للخليفة القائم في دمشق قواده فيما وراء أكسوس والبرانس وعلى شواطىء بحر قزوين ووادى النيل؛ وفى غضون ذلك كان بأس الدولة آخذا فى التدهور والانحطاط من جراء المنازعات السياسية والدينية القائمة فيها؛ أما الشيعة الذين تمسكوا بحصر الخلافة فى على وأبنائه بأمر مقدس، فقد ثاروا مراراً عدة، وانضم إليهم المسلمون الفرس الذين كانوا يمقتون العرب والحكومة الأموية الظالمة، كما كان العباسيون — وهم ذوو وشيجة قربى قوية بالرسول — قادة الاضطراب الذى انتهى بخلع البيت الحاكم نهائياً واستئصال شأفته

ء — الدولة العباسية (٧٥٠ — ١٢٥٨)

كان العرب حتى ذلك الوقت أصحاب السلطان فى المجتمع الاسلامى، وقد شمخوا بأنفهم تيها على المسلمين من غير العرب وازدروهم، ولكن انعكست الآية بعد ذلك، إذ نجد أنفسنا قد انتقلنا من عصر العصبية العربية الى عصر النفوذ الفارسى والثقافة الجامعة، وكان صفوة القوات العباسية من فرس خراسان، وشاد العباسيون «بغداد» عاصمتهم الزهراء على أرض فارسية، ونال أشراف الفرس أسمى مناصب الدولة وأرفعها فى بلاط بنى العباس، وإن لم تكن الدولة الجديدة دينية، إلا أنها كانت على الأقل حدبة على الدين مجتهدة فى أن تحيط نفسها بمظاهر الورع، ونسى العرب والفرس حينا ما بينهم من خلاف وفروق، وتعاونوا جميعاً كما ينبغى على المسلمين الأتقياء، ولقى التعليم تشجيعاً عظيما، وكان هذا العصر العصر الذهبى للاسلام، وقد بلغ أوجه أيام هرون الرشيد الزاهرة (٧٨٦ — ٨٠٩). ولما مات تداعت عمد السلام مرة ثانية، وابتدأ نجم الأمبراطورية القوية البأس فى المغيب، وأخذت المقاطعات تنسلخ واحدة بعد أخرى عن الخلافة، وتقتطع نفسها منها، ومن ثم ظهرت دول مستقلة كثيرة، بينما صار الخلفاء دمىً فى أيدى الجند الأتراك، وظلت معظم الأقطار الاسلامية معترفة بسيادتها اسمياً، ولكن منذ أواسط القرن التاسع لم يبق لهم إلا القليل منها، أو لم يعد لهم شأن مطلقاً

(يتبع) ترجمة محمد حسن حبشى